

كاهن الجان

info@darak-egy.com



02 24832669-010 27251915



51 ب شارع النهضة – من امتداد رمسيس – القاهرة.



جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

كاهن الجان

اسم النص الأصلي: "جرين تي".

اسم المؤلف: جوزيف شيريدان

ترجمة: بسمة الخولي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2019/4722

الترقيم الدولي: 978-977-6634-21-3

الطبعة الأولى: 2019

جوزيف شيريدان

كاهن الجان

رواية

ترجمة

بسمة الخولي



إهداء إلى الصديق الذي رحل فجأة..

البداية

مارتن هاسيلياس - الطبيب الألماني.

على الرغم من سعة دراستي في الطب والجراحة، إلا أنني لم امارس أيًا منهما عمليًا. لم تنخرط أصابعي والمشرط الفضي الحاد بينها في شق لحم مريض، أو تصفية الدمامل الصفراء اللزجة من القيح. تُراجعي عن الانخراط العملي في مهنتي لم يكن - أبدًا - كسلًا مني، أو تخاذلًا. لا، لا لم أكن لأتهاون في أداء مهمة بنبل الطب. إلا أنني - للأسف - كنت عاجزًا بيدي بعد حادث عبثي مع سكين جراحة تسبّب في ضرورة بتر إصبعين من أصابع يدي فورًا.

فقدان إصبعي، وعدم القدرة على ممارسة المهنة التي أحب عمليًا، أفقداني التوازن النفسي أيضًا، ومعه بدأت صحتي بالتدهور حتى ما عدت قادرًا على البقاء في المكان ذاته لأكثر من اثني عشر شهرًا. عزائي الوحيد كان تلك الكتب التي عكفتُ على قراءتها والأحداث التي ألقاها القدرُ في طريقي كتعويض عما فقدت أسفل سن سكين الجراحة.

أثناء سنوات تجوالي القسري قابلته للمرة الأولى؛ د. مارتن هاسيلياس.

طبيب عاشق لمهنته مثلي، كثير التجوُّل مثلي، لكن - على عكسي في هذه النقطة - كان تجواله بكامل إرادته الحرة، لا هربًا من اكتئاب؛ بخلافي أيضًا لم يكن الطبيب ثريًا، أو ثريًا بالمعنى الذي اتفق عليه آباؤنا هنا في إنجلترا، ماذا كان المصطلح المستخدم؟، نعم ”وليد الظروف الملائمة“.. المصطلح الذي أطلقه أفراد الطبقة الاجتماعية فوق المتوسطة على مرتادي النوادي والاجتماعات الموسمية، لقاءات الشاي والسيجار حول البيانو الأسود ذي الشرف الدانتيل الأبيض.

كان ذكيًا، أكبر وأكثر خبرة مني بنحو خمسة وثلاثين عامًا. لذا ارتقى بسهولة من خانة المعرفة إلى خانة الاحترام والتقدير وسرعان ما أصبحت أتطلع إليه بنظرة التلميذ للمعلم. الطبيب كان واسع المعرفة، شديد الإطلاع، جمع بين ما تعلمه وما استمر في كسبه من معرفة لاحقًا وبين حدسه؛ لذا كان مصيبًا في أغلب الأوقات. تعلقي بمعلمي استمر في الازدياد والرباط بيننا زاد قوة، تلك القوة تحملت عشرين عامًا ولم تنقطع حتى بعد وفاته.

بقيت تلميذًا تحت إشراف د. هاسيلياس لعشرين عامًا، كطبيب، مستشار، ومدير لأعماله. وضع تحت رعايتي كامل ملفاته وكتبه لأرتبها بمعرفتي، أديلتها بملاحظاتٍ أو أتركها كما هي إن لم يكن هناك حاجة لتدخلي.

كانت لدى د. هاسيلياس طريقة مميزة في التعامل مع ملفات المرضى أو الحالات التي تمر عليه، يقسمها إلى فئتين؛ الأولى تلك الحالات التي يلتقيها بالنهار في عيادته أو في زيارته الخاصة، والثانية تلك التي يراها ليلاً حين ينطلق إلى الأكاديمية أو المجتمعات البحثية. أغلب الحالات الليلية كانوا موتى. لكنه لم يفرِّق بينهم وبين أحياء النهار، لم يفضل التركيز على فئة على حساب

الأخرى. في نهاية كل فئة كان يجمع كافة ملاحظاته وأفكاره ثم الاستنتاجات والرسوم التوضيحية يضعها في آخر الملف.

من حين إلى آخر كانت تسترعي انتباهي ملفاتٌ بعينها لحالات غريبة، أو غير اعتيادية لأكون أكثر دقة. بعضها مثير للاهتمام طبيًا لكن أكثرها كان بعيدًا تمامًا عن الجانب الطبي، أقرب إلى لغز خارق للطبيعة كان من شأنه إثارة فزعي؛ أحد تلك الملفات كان عن حالة رجل قابله في رحلة قام بها قبل ستة وأربعين عامًا إلى إنجلترا. تلك الحالة جعلت الشعيرات على مؤخرة رأسي تنتصب.

عثرت على الملف الخاص بتلك القصة على شكل خطابات بين د. هاسيلياس وصديق مقرب له يُدعى "فان لو"، من الولايات المتحدة. على عكس مُعلمي لم يكن "فان لو" طبيبًا بشريًا لكنه كان كيميائيًا وباحثًا في علوم ما وراء الطبيعة؛ لذا جاءت كلماته أقرب للحكايا المثيرة للاهتمام منها إلى السجلات الطبية، أكثر سهولة على القارئ العادي غير الخبير بالمصطلحات الكثيرة في أيٍّ من المجالين، الطب أو الكيمياء.

لم تقع تلك الخطابات بين يدي بالصدفة؛ فبين كل الملفات الغريبة التي وجدتتها تلك جاءت كرسالة بريدية رُدت إلى مكتب د. هاسيلياس بعد وفاة الكيميائي "فان لو" عام 1819. وقتها كان الرجل شهيرًا إلى حدٍّ ما - حتى إنه كتب مسرحية عُرضت على الجمهور - إلا أنني لم أتوقع أن تكون له علاقة بالطبيب هاسيلياس، ولم أتوقع أن الرجلين كانا منخرطين في علوم ما وراء الطبيعة إلا بعد أن قرأت الخطابات.

القصة كانت مخيفة، مخيفة حتى إنني بعد وفاة معلّمي وجبَ عليّ أن
أنشرها لعامة الناس ليروا ما رأيت أنا. تحرير الدقة في ترجمة الخطابات -
لأنها كانت بالألمانية والفرنسية أكثر من الإنجليزية - كما أنني تأكدت من
تغيير الأسماء وطمس بعض المعالم لحفظ خصوصية أصحابها.
إلا أنني لم أغير في النص الأصلي شيئاً، لم أحن أياً من أصحاب القصة، ما
سيأتي هو ما حدث بالظبط قبل ستة وأربعين عاماً.

الفصل الأول

الطبيب والراهب

الراهب السيد جينينجز، كيف يسعني إيجاز وصف شخص الراهب جينينجز في كلمات أو سطور؟! الرجل ممنتصف العمر، طويل القامة، رفيع، له هالة غريبة من الرهبة المحيطة به، سواء لأنه اعتاد ارتداء الرّي الرسمي الكنسي بانضباط تام، أو لأن قسماط وجهه كان يشوبها الإجلال؛ لم يكن قاسياً، لا بل على العكس تماماً. انطباعي عنه مال إلى ”رجل مريح“، ليس وسيماً تماماً لكن ملامح وجهه حسنة، متناسقة تماماً، تشوبها الطيبة بل وربما مسحة من الخجل أيضاً.

قابلته للمرة الأولى في أحد الأمسيات بيت السيدة. ماري هيدوك. حضوره اللطيف وطلته المشرفة الودودة هي ما جذب انتباهي في البداية فوراً. كنا جماعة صغيرة مشاركة في تلك الأمسية، كلنا على معرفة ببعضنا البعض، لم يمانع في المشاركة معنا في الحديث وإن كان يجذبه الإنصات للكلمات أكثر من المشاركة بها، ”مستمع جيد ذلك الرجل“ هذا ما جال بعقلي وقتها، لم يلتزم الصمت التام طوال الأمسية بالطبع لكن كلماته التي قالها كانت دائماً

مختصرة، ذكية، وذات معنى. مما عزز انطباعي عن كونه رجلاً ذكياً وواسع الاطلاع بجانب احترامه وهدوئه. ماري كانت شديدة الإعجاب بالراهب جينينجز، تكن له احتراماً خالصاً لا تشوبه شائبة. كما أنها اعترفت لي أن ثققتها به مطلقة حتى إنها ظلت تستشيريه في أمورٍ كثيرة من حياتها، وهو لم يعترض أبداً على المساعدة.

”الراهب جينينجز بالتأكيد الإنسان الأسعد على وجه الأرض، بعقل مثل هذا وقلب بهذا الصفاء“ اعترفت لي إحدى المرات بعد تلك الأمسية؛ لم تتخيل وقتها بالطبع كم كانت عبارتها شديدة البعد عن الحقيقة. وبطبيعة الحال لم أكن أعرف أنا أيضاً في ذلك الوقت حقيقة الراهب الودود قليل الثثرة.

أخبرتني ماري أيضاً بمزيج من الفضول والأسف بينما نتناول الشاي معاً أن جينينجز كان ثرياً ذا وضع اجتماعي حسن للغاية، مع ستين ألف جنيه في حسابه. لم يصبه المبلغ بالكبر بل على العكس كان كثير الصدقات، شديد الطيبة مع الفئة الأقل حظاً. وإيراداته اختار الخدمة الكنسية، ومعها العهد بالعزوبية، كان متحمساً لممارسة مهامه القدسية، شديد الإخلاص لكل ما يترتب على اختياره من واجباتٍ ومهام. مارس مهنته بعناية في كل مكان، كل مكان ما عدا مقر القساوسة الذي وجب عليه القيام بمهامه فيه أكثر من أي موضع آخر على الأرض.

أطلعتني ماري على خبر صحة الرجل التي ما انفكت تتدهور بشدة ما إن تطأ قدمه مقر القساوسة الخاص في وارويكشاير. لا أدري من أين لها أن تعرف تلك المعلومة لكنها كانت واثقة تمام الثقة من صحة مصادرها. كان جينينجز يعاني من ضعفٍ جسديٍّ شديدٍ ما إن يصبح داخل حدود التجمع، تزحف حبيبات العرق البارد من جبهته إلى ظهره ثم تبدأ كفاً يده بالارتجاف،

أحياناً إن حاول الصلاة تظهر الدمامل بين أصابعه وخلف أذنيه. وربما يسقط فريسة للحمى لأيام.

- ولم تشكّي ولا مرة في أن تلك الأخبار كانت من صنع أحد العقول المريضة؟
سألت ماري وأنا أضع كوبي فضمت شفيتها وهي تجيب:
- ماذا تعني؟

- إن أحدهم يحاول رسم صورة، غريبة عن الراهب لنقل...
لمحت شبح ابتسامة على وجهها سرعان ما تحوّل لتعبير أقرب إلى البؤس
وهي تضع قدحها بدورها وتحرك رأسها نفيًا:
- لا، لا يا عزيزي.. الأقوال حقيقية.

كدت أفتح فمي للإجابة لكن بحركة من أصابعها أسكتني لتكمل:
- رأيت واحدًا من تلك الحوادث بنفسي.

كان هذا أثناء أداء القداس في الكنيسة الرئيسية التي يخدم فيها جينينجز في كينلز، كنيسة جميلة ورحبة. ورغم بُعدها عن مقر ماري إلا أنها قررت الذهاب بنفسها وحضور قداس كان جينينجز قائمًا عليه بعد ما سمعته عنه. أخبروها أن المشكلة ربما كانت في عقله، أو قلبه؛ لأنه كان يتوقف فجأة عن الكلام وسط القداس قبل أن يستجمع أنفاسه بعد دقائق عديدة ليواصل. حدث هذا ثلاث أو أربع مرات سابقًا.

بنفسٍ متشككة قررت ماري التحقق، لم تتوقع رؤية الكثير.. وبالفعل ظلّ عقلها قلقًا من أن تشهد انهيار الراهب بسبب مشكلة في القلب وسط الخدمة، لكنه كان يتحدّث بطلاقة تامة وبنثقة، صوته الرخيم كان متبوعًا بتأميناتٍ من الحاضرين والقدّاس كان بديعًا. لم يحدث شيء غريب إلا بعد

مرور نصف الوقت تقريباً. توقف الراهب فجأة عن الكلام ويداه وسط الهواء. كان يحدق بشيء ما وعيناه متسعتان، حتى إن رؤوساً عديدة - بما فيهم ماري نفسها - التفتت لترى ما كان الرجل يراه.

بدأ قلبها يخفق بعنفٍ وسرت همهمات بين الحاضرين، فتح جينينجز فمه ليستكمل القداس لكن الكلمات تعثرت في حلقه وصمت، ظلَّ صامتاً فترة ثم هبط فجأة على ركبتيه ويداه مرفوعتان في صلاة أمام الصليب، كانت همماته مسموعة لكن لا أحد استطاع تفسير ما يقول، استغرق الأمر دقيقتين أو ثلاث بدت لماري دهرًا. قبل أن ينهض الرجل، شاحبًا كالموتى. ويهبط الدرجات مبتعدًا عن المذبح ومتجهًا إلى الغرفة الداخلية في خطواتٍ متعثرة متفادياً النظر للجميع.

- لم يكن كبير القساوسة حاضرًا يومها، لكن تم تكليف مساعد بحضور جميع الاجتماعات التالية بصحبة السيد. جينينجز.

قالتها ماري ثم أخبرتني بأن تلك النوبات التي يقع الراهب ضحية لها تنتهي ما إن يغادر إلى لندن، تحديداً إلى منزله الصغير الضيق في بيكاديلي، حيث ترتفع نفسيته عدة درجات وتحسن صحته فوراً، يصبح أكثر إشراقاً هناك.

بعد اللقاء مع ماري كنت متشككًا، قلِّمًا من كون الرجل يعاني متظاهراً بالصحة وسط المجتمع الذي يعرفه ويألفه، سيؤدي هذا بالطبع إلى اعتلال صحته أكثر في المستقبل لأنه لا يحظى بالرعاية المناسبة. وبالتالي قررت الانتظار ريثما أتحدث بنفسي، بالذات بعد تلك الحوادث الغريبة التي أخبرتني ماري بها. كأستاذ متمرس في الطب، طورت تلك العادة الغريبة على مر السنوات.

لعنه هي تأتي مع الوقت كما يقولون، لدي القدرة على تتبُّع وملاحظة كل شيء، كل شيء وأي شيء حتى ولو لم يكن غريبًا كفاية ليسترعي انتباه الأشخاص العاديين. جاء ذلك من كوني مختصًا أكثر في القراءة والبحث في مجالي الطبي عن ممارسة الطب عمليًا؛ الوقت الذي أملكه للبحث والملاحظة - سواء أنا أو أي أستاذ باحث آخر - أكثر بكثير من الوقت الذي يملكه الطبيب العادي. وبالتالي تأقلم عقلي على تلك الحالة حتى خارج مكنتي، يراقب، ينظر، يبحث، ويسجل.

بسبب تلك الخصلة الغريبة في ذكرت فورًا شيئًا صغيرًا كنت قد أغفلت عنه سابقًا، لمحة من حركة غريبة لفتت انتباهي في لقائي مع جينينجز، لم تكن شديدة الوضوح لكنها تكررت أكثر من مرة حتى إنها لفتت انتباهي. من تعبيرات وجه المحيطين بي أدركت أنهم هم الآخرون لاحظوها، وإن لم يعلق عليها أحد سواء احترامًا للرجل، أو لأنهم اعتادوا رؤيتها كونهم رفقاء في تلك الأمسيات أكثر مني.

الراهب جينينجز لديه تلك العادة الغريبة في التحديق بعيدًا عن وجه المتحدثين في بعض الأحيان، بسرعة وبصمت تتجه نظراته إلى أحد أركان الغرفة، أو إلى طرف السجاد، حيث تسجل حركه عينيه تتبُّعًا لشيء ما يراه هو دومًا الآخرين. في تلك اللحظات يشحب لونه وتبدو قسماً وجهه غير مرتاحة تمامًا، وكان شيئًا بشعًا يؤرقه.

تذكرت أنني رأيت تلك الحركة حين كنا نتحدث للمرة الأولى بالمجموعة وأني فكرت وقتها أنني ربما قلت شيئًا ما أزعج الرجل، بل وكدت أعتذر لولا أنني أدركت أنه لم يكن محور الحديث لحظتها، بل وأن تلك النظرة بعينه لم تكن نظرة استياء بل خوف، والتفتُّ، التفتُّ فورًا إلى حيث ينظر ولم أر شيئًا غريبًا.

لست مؤمناً بالمادة إيماناً تاماً ولا بالغيبيات إيماناً تاماً؛ لذا، جعلت تلك النظرة الشعر بمؤخرة عنقي ينتصب.

لكنني بالطبع لم أسأل وعولت الأمر على كونه ربما مرض عقلي أو مشكلة في عصب العين، سيكون السؤال قلة ذوق من طرفي خاصة وأنني أقابل الرجل للمرة الأولى في حياتي.

لكنني وعلى الرغم من أنني تحاشيت السؤال بقيت أراقب الرجل طوال الساعات المتبقية من السهرة، ليس بدافع القلق لكن الشك والفضول. الراهب المحترم والذي بدا هادئاً، حسن الطباع وعملي. كان يملك ما يخفيه. بالطبع لم أكن قد استمعت حينها لرواية ماري عما حدث أو يحدث معه لكن شيئاً ما في شخصه دفعني للشك.

في السنوات الماضية، قبل أن أبدأ سفري، تعمقت بالبحث في جانب آخر تماماً من الطب، جانب طالما يتجنبه المجتمع العلمي رغم أنه على ذات القدر من الأهمية - بل وربما أكثر - من الأمراض العضوية، الأدوية والتشريح. الروح، ذلك المصطلح الغامض الغريب الذي لا يتحدث الرجال المحترمون ذوو اللباس الرسمي في بلادنا عنه، وإن تم النقاش فيه فإنه يبدأ وينتهي على استحياء وبصوت لا يعلو الهمس.

في بحثي بعلم ما وراء الطبيعة، صادفتني العديد من الحالات الطبية الغريبة والإفادات من أقارب بعض المرضى التي دفعني الفضول لتتبعها، بحثاً عن حقيقة ذلك المصطلح الغريب "الروح". أتذكر أنه في إحدى المرات جاءني إلى مكتبي رجلاً في نهاية سنواته الخمسين يطلب مني مصاحبتَه لمنزله، حيث تحتضر زوجته بالسُّل الرئوي. حاولت وقتها رفض طلبه بذوق وأخبرته أنني